ماقال مالك اديب « الكلام ما تصلت لحمة الفاظه بسدى معانيه فخرج مفوفاً منيراً وموشى محبراً وان من البيان لسحراً »

وقد قال غيره « البليغ من يحوك الكلام على حسب الاماني ويخيط الالفاظ على قدود المعاني » ومن اجل ما وصفت به البلاغة قول احد العلويين « البلاغة ايصال المعنى الى القلب بحسن صورة من اللفظ » وهو يضارع قول بعض الاعراب « البلاغة ايجاز في غير عجز واطناب في غير سفسفة »

هذه هي الضالة التي يحسبها الناس اليوم لعقة من عصيد ولقمة من ثريد فلا يكاد الصبي منهم يقرأ الاجرومية او شيئاً من شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ويلتقف بعض ما وضعه الخليل بن احمد في دائرة البحور من الاعاريض وقبله اسماعيل الجوهري على بعض صفحات الصحاح من حوشي الالفاظ حتى يتربع في دست التصنيف والتأليف او يقف على منبر الانشاء الخطيب او يسمي نفسه بالشاعر الساحر فيملأ الدنيا صناناً وهو يظنه عطراً وملاماً ورنداً وخزاماً وقد الامر من قبل ومن بعد وما هو بغافل عما يهذرون

«سليم عنحوري»

هل اللغة العربية حية[1]

وضع المسيو انطون قطان احد اعضاء المجمع العلمي القرطاجني في تونس محاضرة رد فيها الى من قال ان اللغة العربية ليست من اللغات الحية وانما كانت كذلك وقد اصبحت اليوم من اللغات الميتة فاحدث كلام من اصدر هذا الحكم تأثيراً في نفوس المسلمين لان له علاقة باعز الاوضاع عندهم واقدسها في نظرهم ونعني بها اللغة وقد ردت بعض الصحف الاسلامية الى من رموا العربية بالعقم رداً لم تورد فيه برهاناً بل جعلته خيالياً وتجاوزت فيه حد المناقشة الادبية ورمت القائل وهو اوربي بالطبع بانه لا يعرف مافي العربية من المزايا والخصائص وقالت انى يتأتى الغريب عنها ان يفهمها حق فهمها بيد ان صاحب هذه المحاضرة دافع عن العربية دفاعاً علمياً ورد مزاعم من يرمونها

(١) عربنا هذه الرسالة في الشهر الذي صدرت فيه من العام الماضي ففقدت اصولها من الطومار في جملة المقالات التي ضاعت عندما أقفلت مطبعة المقتبس وعطلت هذه المجلة والجريدة وها نحن نعربها ثانية حرصاً على فائدتها فلها عذرنا لصاحبها

بالموت بالبرهان الجديد واثبت لها الحياة مع من يحبها لها من ابنائها الذين يكتبون بها ويتكلمون فقال :

ان دعوى المسيو فوبل بان اللغة العربية لغة مقدسة جامدة لا تتحرك وان ادنى تغيير يدخل عليها يعد خرقاً لحدودها وعبثاً بقانونها هو من المساوي التي يحاملها الواقع ولا ينهض عليها دليل . واني أرى علماء المشرقيات الذين يتعلمون العربية والكتاب المسيحيين في سورية ومصر ممن عنوا بها وبرزوا في آدابها متدينين الى والمستغربين من المسلمين انفسهم يوافقوني على قولي ان اللغة العربية لغة سامية انتشرت اولاً في شبه جزيرة العرب ووصلت الى درجة التهذيب قبل الاسلام ببضعة قرون وكملت على يد النبي واصحابه واله مضت عليها قرون طويلة وهي زاهرة بين شعوب انتشرت بينهم الحضارة الاسلامية فنشأ لهم في العربية كتاب كثيرون من النصارى واليهود والمسلمين وانها اليوم شائعة بين الشرقيين من اهل الاسلام وغيرهم ويتفهم بها بضع مئات الالوف من البشر بين كثير ممن لم يدينوا بالاسلام يروون شمالي افريقية واواسطها وجزءاً من قارة آسيا .

نعم لا أؤاخذ اذا قلت اذا كانت العربية عند معظم المسلمين لغة مقدسة لانها لغة الدين والعبادة وهي لم تبرح لارباب العقول السامية الذين يدانون بهم الاسلام والمسيحيين والاسرائيليين الذين عدوا لها حق العناية منذ عهد الخلفاء الى هذا اليوم اداة بديعة للافصاح عن الفكر والعواطف العالية في مظاهرها المختلفة والى من اجمل لغات البشر .

ارى انه متى أريد البحث في لغة بحثاً علمياً ان لا نوصف بما يصفها به ارباب التقاليد من الغلاة ولا المتعصبة من المتفقهة بانها لغة مقدسة غير قابلة الزيادة والنقص بل الواجب النظر الى تاريخ هذه اللغة والبحث فيما اذا كانت بقيت جامدة على صورتها الاولى حقيقة او انها نشأت ونمت كما ينمو كل تركيب نام حي .

لا جرم ان كل امرىء يعرف ان اللغات لا تحيا على يد اساتذة الكليات ولا بتقارير القضاة ولا باحكام الحاكم واوامر الحكومات فاللغة الافرنسية لم تنم منذ عهد كولبر الى زمن ريان بهذه الطريقة بل ان العربية على ما فيها من الكتب في النحو والعروض التي شرحها فحول الجوامع لا تمد لغة ادب فكما ان الافرنسية نماها كتابها المبدعين المجددين اكثر من حياتها رجالها اللغويين والباحثين في اصولها هكذا اللغة العربية عاشت طول عمرها

خارج الكليات الاسلامية بل بفضل اعمال المجددين والمترجمين والعلماء والفلاسفة والشعراء الذين كانوا في عصور مختلفة مع تمسكهم بقواعد النحو العربي الذي كانت الكليات مهيمنة عليها فهم يتقنون ما امكن موقف التوفيق بين ما يكتبون وبين اللغة التي يعجبون بها ويحق لهم العجب من كمالها وعنفها وجمالها . ومع هذا لم يقفوا ساعة عن تقويتها بجملة الهامس لافكار الطارئة وللات الشعوب الاخرى

واذا اراد المسيو لويل الخروج من هذا القياس وادعى بان اللغة المصرية اليوم هي لغة حديثة نشأت من قطع مقتطعة من النثار وليست من التقدس في شيء اي ليست اللغة العربية في معناها الضيق بل هي لغة صناعية وان اللغة المقدسة هي التي استعملها القرآن فقط وفيها الغريب — اذا قال بهذا ايو يحذف بجملة من الآداب العربية كتب المؤرخين والعلماء والفلاسفة وغزل الشعراء الاذيا مملوءة بالمولد او انه يعتبرها من الكلام الوحشي الغير المأنوس ، يقتصر بان لا يعد من الآداب العربية الا القرآن وتفاسيره وربما كانت هذه التفاسير تحسب زعم المسيو لويل من غريب الكلام ايضاً

اما انا فلا افرط في التدقيق اكثر من عالم من علماء المسلمين بعد ان رأيت في دور المكتب الاسلامي ان طلبتهم ينظرون في كتب القرآن والفقه وعلمها تآليف كتبت بالعربية الحديثة بل مترجمات فلاسفة يونان . وانني اسمي باللغة والآداب العربية تلك اللغة وتلك الآداب التي الحق من المسلمين امثال سلفستر دي ساسي ودرانبورغ وغولسيير وغيرهم من العلماء في تسميته بهذا الاسم .

قال المسيو لويل ان اللغة الحية هي التي تخضع لنواميس الحياة اي انها تدخل فيها الجديد وتنبذ ما لا تراه نافعاً لها وهو تحدد بعض شروط الحياة كالتغذية لكل تركيب تام نباتياً كان او حيوانياً

واذا كانت اللغة العربية منتظمة ولها قواعد ثابتة لا يدخلها التعديل بدون خرق حرمتها فهي لا تقبل القلب والابدال ولذلك اصبحت من اللغات الميتة

واني لا اكتفي بدحض هذه الحجة بان اورد تاريخ العربية ولكم ان تحكموا بانفسكم بان هذه اللغة لم تبرح خاضعة الى لاسلام ومده النواميس الحياة . اما تاريخ اللغة العربية فينقسم الى ادوار اربعة دور التكوين ودور المدنية الاسلامية الزاهية ودور الانحطاط والدور الحالي .

فدور التكوين يبدأ بالزمن القديم الذي انفصلت فيه هذه اللغة عن سائر اللغات السامية

واصبحت لغة عامة بعد ان كانت عبارة عن لهجات كثيرة فلما نجد بين الخلافة كثيراً وهي واردة بعد ما كان يعيش من السكان في ارض شبه جزيرة العرب . وتعدد اللهجات كان من اسباب غنى العربية بمفرداتها واساليبها الخ بعد ذلك الى ان اندمجت هذه اللهجات بعضها في بعض واستبدت كلها بلهجة الا ثلاث لهجات كبرى ذكرها التاريخ وهي لغة اليمن والحجاز والحيرة

بعد محمد (عليه السلام) وبدأ توحيد بلاد العرب في سياستها ووفق اخلافه الى تتميم هذا التوحيد بتوحيد لغتها فكانت اللغة لغة الحجاز موطن النبي فاصبحت لغة القرآن بعد واخذت يدخل اليها من المفردات المستعملة عند شعوب كثيرة عن كانوا يتصلون بهم من جيرانهم كالهند والفرس والنبط والحبشة والمصريين والاسرائيليين وغيرهم . فكانت بذلك اتسع ولا عجب ان ... الى اللغة الادبية في ذلك العهد مزيج من لغات الامم الاخرى

والالفاظ الاجنبية التي دخلت على اللغة العربية اذ ذاك في اسماء المظاهر الطبيعية والمنتج بطون الارض من المعادن وما يصنع في الفرس والمملكة الرومانية والهند الشرقية من المصنوعات ويحمل الى جزيرة العرب . واقتبست العربية قبل الاسلام الفاظا كثيرة من اللغة السريانية كما اقتبست من الارامية بعض الالفاظ الدالة مثل « الحج » « الكهن » « الملكوت » وكانت الصلات التجارية بين الهند وبلاد العرب سببا في تعريب كثير من الالفاظ السنسكريتية ولاسيما ما كان منها خاصاً بالعطور والاحجار الكريمة . وبعد ان اتصل العرب بالامم ... الفارسية ادخلوا الى لغتهم الالفاظ الدالة عليها في حضارتها فدخلت من الالفاظ « السروال » « الجبة » « القفطان » « الطربوش » على غرار ما استعمل المسلمون الذين يكتسون الثياب الاوروبية اليوم من الالفاظ مثل « كت » « البنطلون » « ... » واخذوا عن الفرس معظم الالفاظ التي تدل على الاطعمة المطبوخة والاشربة والالات وغيرها .

وبدأ الدور الثاني للغة العربية وهو دور الشروح الادبية الاسلامية واقتباس الالفاظ الدينية والنادرية والادارية والعلمية وعلى ذلك تم تعريب كتب اليونان والفرس واليهود فدخل اللغة من الالفاظ مثل « الكفالة » « السيدة » لم توضع في استعمال بعض الالفاظ لاكثر من المعنى الذي وضعت للدلالة عليه مثل « مؤمن » « مسلم » « صلاة » « زكاة » « الصلاة »

حتى اذا تمت الفتوحات المسلمون ينظمون البلاد التي خضعت لسلطانهم اخذوا من الفرس والبيزنطيين اصول انظمتهم السياسية والادارية والمالية والعسكرية والثقافية فاتضح لم تعابير جديدة الدلالة في هذه الوظائف الجديدة «اقتبسوا اكثرها عن الفرس والبيزنطيين مثل «الديوان» «الخاصكية» «البريد» «نيشان» من الفارسية «الاسطول» «الكردوس» «البطاقة» من الرومية واخذوا مفردات عبرية وسريانية عندما ترجمت التوراة والاناجيل مثل «قربان» «جهنم» «توراة» «توبة» «تلميذ» «ملكوت» «آمين» بل ان قواعد النحو نفسها قد دخلها التعديل لحاجات العرب تستعمل المصادر المستقة للتفنن في التعبير تكثر من استعمال صيغة المجهول وتنسب الى الروح روحاني والى النفس نفساني وتستعمل بعض الصفات في صورة اسماء مثل «الآلية» «العامة» «الخاصة» وفي ذلك العهد سقطت من الاستعمال بعض الالفاظ التي اتى الاسلام على مدلولاتها مثل «المرباع» «النشيطة» «الاتاوة» «الصرورة».

وهكذا ظلت العربية تغتني بمفرداتها الجديدة وتراكيبها الحديثة وتنمو مفرداتها وقواعدها حتى جاء عصر انحلال الممالك الاسلامية واخذت تنقسم الى ممالك مستقلة يحكمها اناس من اصول غير عربية كالمغول والاكراد والاتراك وغيرهم . في تلك العصور أصيبت اللغة بما ذهب برونقها الاصيل واصبحت من التكلف واستعمال الالفاظ الضخمة في جانب من الطلاوة والجمال حتى ان ما كتب من المصنفات في ذلك العهد تصعب قراءته لخلوه من كل فائدة . اذ عهد الالفاظ الرنانة الضخمة والسجع المرصع الذي أعجب به بعضهم وعول عليه كثيرون وذلك لان البيان كثيراً مايضيع لضرورة السجع واذا ارتفعت الاصوات بالاعجاب بالفكر يبوء عنها كل البوء .

وفي ذلك العهد دخلت اللغة تلك الاستعارات الضخمة والبلاغات الغريبة حتى ان معظم الالفاظ التي عرفت تلك الايام كانت الفاظاً ادارية واسماء رتب في الجيش مثل «سقدار» «باشكي» «اليوزباشي» «الباشا» «دفتردار» «خزندار» «المابين» «الاغا» «دفترخانه» . وفي ذلك العهد ايضاً اخذت بعض الالفاظ العربية توضع لمسميات جديدة مثل «المتصرف» «صدر الاعظم» «القائمقام» «المسئولية» «التابعية» ثم اتى دور تركت اللغة الا ما كان له مساس وثيق بالنحو واللغة والتصوف والفقه وفي هذه الموضوعات صدرت كتب لاتحصى بكثرتها .

والدور الرابع دور النهضة ويرد تاريخه الى نحو قرن وقد نزل الاوربيون في الشرق يخمسون لهم في شواطىء البحر الابيض بلاداً يتولون سلطتهم فاختلط الحضارتان المتقاربة اختلاطاً دائماً نشأ منه تبادل في الافكار بينهم وبفضل ذلك اغتنت لغتهم بمفردات استعارها بعضهم من بعض . ولما كانت بضاعة الشرقيين في العلم قليلة اضطروا في دراسة العلوم الحديثة ان يأخذوا الفاظاً عن اللغات الغربية او ان يتوسعوا في معاني بعض ما لديهم من الالفاظ العربية ليضعوها لافكار ومعارف جديدة . وذلك دليل على ان اللغة ظلت على حالها في النشوء

ومن العبث ان نورد هنا بعض الالفاظ الافرنسية التي اندمجت في سلك اللسان العربي مثل « بوليس » « بارلمان » « سيركولير » او الالفاظ الايطالية مثل « بوسطة » « ديكربنو » « بروتستو » دع عنك التعابير العلمية التي سرت الى العربية من اللاتينية او اليونانية وهي شائعة في لغات اوربا . ومن الالفاظ الكثيرة التي حولت عن معناها الاصلي للدلالة على افكار جديدة لم تكن مألوفة الشرقيين « الميزانية » « المؤتمر » « العرور » « المحافظون » « الاحرار » « الاشتراكيون » « اهل الفوضى »

وقد نشأ اللغة في سورية ومصر لمهذبا كتاب بالعربية من الطبقة الاولى حلوا اللغة من قيودها واعادوا اليها عصرتها الاولى وانقذوها من المترادفات المملة حتى صارت بانشائها الى الوضوح والسلاسة معبرة احسن تعبير عن الافكار الحديثة وبفضلهم اخذت روح اللغات الاوربية تدخل في العربية وسهلوا نحوها وصرفها وبيانها .

يقولون ان لغة الكتابة تخالف لغة التكلم ومثل هذا موجود في اللغة الافرنسية نفسها فان اهل الطبقة الوسطى يتكلمون بلغة لا تناسب بينها وبين لغة اديب او شاعر على ان الشعب في البلاد التي يتكلم فيها بالعربية اقرب الى فهم ما يتلقون من الالفاظ بالذوق من الشعوب الاوربية الى فهم القريب من لغاتهم الرسمية . والدليل على ذلك انك تجد الطبقة النازلة من الامة تستمع لحكواتي (الاداتي) في محال القهوة وتنصت لقصص السالفة وليلة وقصة عنتر وتفهمها كلها على بلاغتها بفطرة فيها وشعور طبيعي . وربما يقال ان التخيل باللغة العربية الادبية يفهمه العامة ولكن الشهم فهم بعض ابياتها تعادة باريزيسوا في مسارحهم اكثر بيانا بقل عليهم من قصائد كورنيل وموليير واللغة العربية ليست كما يقال لغة صناعية جديدة وليست غريبة الا عن كثير من الطلبة

الهنود والمراكشيين وغيرهم ممن يقصدون من البادية جامع الزيتونة في تونس والازهر في مصر ليتعلموها لرأى ان اللغة حية لمن يدرسها ويشعر بها يتذوق مثل كتاب الشام ومصر الذين يتولون الصحافة ويشرفون المعارف الشرقية بواسطة الصحف والكتب بل هي حية ايضاً بالنسبة لاولئك الذين تراهم في محال القهوة من العامة يهتزون لما يسمعون من المجيد المرتل ووقائع الحروب ثم ان اللغة العربية ايضاً لها الحق ان تكون لغة صناعية اجنبية اذا رأينا كيف يتبارى شبان الطلبة من قرى العالم الروسي وبوسنيا وباسكوتيا (وعوضا) عن الالفاظ العامة في المدارس يتكلمون بلهجتهم الخاصة بهم

ان قيل ان اللغة العربية تحتاج الى عشر سنين لتعلمها مع ان الشرقيين يتعلمونها في اقل من هذه المدة ويتقنون معها عدة لغات اجنبية قلنا ان نعتقد ان اصلاح طرق التعليم في المدارس الاسلامية على الاسلوب الحديث وبذلك يحصل الطلبة لغتهم في قليل من الزمن فاللغة يجب ان تكون آلة لا غاية

وقد قال المسيو لويس ان حاجة العربية ماسة الى ان تستمد من اللغة العامية قلنا انا نقول بان اعظم نقص في اللغة العربية ان تكون غنية وهي لا حاجة لها الى الاخذ من العامية فتحتوي على ... الفاظ للدلالة على الظلام و٥٢ للشمس و٢٠٠ للخمر و٢٥٤ للناقة و٣٥٠ للاسد . وقد اصبحت اللغة العربية بكثرة مفرداتها في عهد رونسار لا تفتح ذلك القياس من الزيادات التي تختلف . فالعربية لا تشبه اللغات الاوروبية بل هي بالنسبة الى الافرنسية كالمرأة البارزة المشرقة اليوم الجميلة الهيفاء مع المرأة المسنة المشرقة التي تعرض ... هذه الفقيرة وهي حية حياة قوية . ثم ان على العربية في مفرداتها ... وسرعة ... ولكن الشعر الفني الحاذر لا يكثر منها كثيراً في عروضه ... كتاب هذا العصر يستعملون عدداً كبيراً من المترادفات ويشتقونها الروح العربية ... واللغة التي تأخذ عن العامية تصبح الى الابتذال اقرب

وما قيل عن الطلبة في الشرق ليميلوا الى ... الغرب ... لانهم ولكنهم يزيدون فهماً ... الشرقي ... على ... العربي في الغرب .

وان قيل ان اللغة العربية لغة ادبية جميلة ولكنها ليست الاداة المناسبة لتعليم العلوم فالجواب ان النتيجة التي وصل اليها اصدقائي الاساتذة في المدرسة الخلدونية من تعليم

العلوم واللغة العربية هي تكذيب صريح لمن يقول هذا القول . ويمكن ان يقال ان شعوب الشرق هم من عناصر ادب وتاريخهم ابعد الى النقد الشعري من ان تعلم العلوم المادية لا يعمل اليوم الى الماضية من الادب ما يشغلون عن الجميل من العلم فغاية ما هو مدفوع منها حتى كادوا يفقدون بذلك حضارتهم . فالاوربيون لم [illegible] هذا الحال الا انه [illegible] اذا كانت العلوم من احسن المستحدثات [illegible] فالشعر الى تعليمه فلا ادب (الادبيات الى روح الانسانية بذاتها

السجل المعلق

نقلنا في الجزء الماضي نموذجا من كتاب السجل لحمزة بن علي شيخ الداعية الحاكم بامر الله وصاحب مذهب الدروز الاول ونحن نورد الان قطعة ثانية منه تكشف الغطاء عن معتقدهم وللقارئ ان يعلق عليها ما شاء :

جاء في الرسالة الموسومة ببد (؟) التوحيد لدعوة الحق . توكلت على مولانا البار العلام العلي الاعلى الحاكم من لا يدخل في الخواطر والاوهام جل ذكره عن وصف الواصفين وادراك الانام . بسم الله الرحمن الرحيم حمد د عبد مولانا الامام : كتابي اليكم معاشر الاخوان المستجيبين الى دعوة مولانا الحاكم الاحد الفرد الصمد جل ذكره عن الصاحبة والولد العابدين له لا لغيره الناجين من ابليس اللعين والضد المهين وجواسيسه اللاعبين والطالبين الذين وسوس به الشيطان لا ابليس عليكم سلطان ولا يجوز عليكم مكان ولا الظرف فيه [illegible] الملائكة المقربون الذين سكنوا الفسحة عن المال المشركين [illegible] عرش . ومولانا جل ذكره والعرش هاهنا هو الخليقي الذي هو [illegible] مستقصى [illegible] الاولى [illegible] قلبه بالايمان له وحده سبحانه وتعالى عما يصفون

اما بعد فاني احمد اليكم مولانا الذي لا معبود سواه واشكره [illegible] والآلاء حمدا لمن استوجب الزيادة في [illegible] ذكره [illegible] من [illegible] الانصار الباقية [illegible] من كان